• **كمال النجمي:**

• الحضرمي الأندونيسي شاعر المسرح المصري، مجلة الحوادث، بيروت، العدد (١١٦٤)، ٢٣ فبراير ١٩٧٩م.

• مخترع الشعر الجديد يعيد تسجيل اختراعه، مجلة المصور، العدد ٢٢٧٣، ٣ مايو ١٩٦٨م، ص ٤٣-٤٤

• مؤلف خسرو وشيرين: كلمة في الشعر المرسل، مجلة الرسالة- العدد ٣٨، السنة الثانية، ١٠ ذو الحجة ١٣٥٢هـ/٢٦ مارس ١٩٣٤م، ص ٤٩٥-٤٩٧

• **محمد عبد المنعم خاطر:**

• باكثير وبداية الشعر الحر: إخناتون ونفرتيتي (٢)، مجلة الكاتب- السنة ١٨- العدد ٢٠٧٦-يونيو ١٩٧٨م- ص ٢٢-٢٧.

• من الشعر المرسل: رواية مقتل سيدنا عثمان "تمثيلية تاريخية"- مجلة الكاتب- السنة ١٦- العدد ١٧٨-يناير ١٩٧٦.

• محمد محيي الدين مينو: أوليات شعر التفعيلة: خوارزميات الموسيقى الشعرية-مجلة الرافد- الشارقة-الإمارات- العدد (١٣٩) ربيع الأول ١٤٣٠هـ/مارس ٢٠٠٩- ص ص ٢١-٢٧.

• مفيد النجم: حوار مع سلمى الخضراء الجيوسي، صحيفة البيان الثقافي، دبي، العدد ٤٩، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٠م.

موقع الأدب
علي أحمد باكثير
www.bakatheer.com

أَنَاشِيدُ بَاكَثِير
دِرَاسَةٌ دَلَالِيَّةٌ وَفَنِّيَّةٌ وَإِيقَاعِيَّةٌ

د. بنعيسى أحمد بويوزان*

جامعة محمد بن عبدالله، فاس. المملكة المغربية

عرَّف أبو نصر الفارابي النشيد بأنه «الشِّعْرُ الْمُتَنَاشَدُ بَيْنَ الْقَوْمِ[1]»، وعرفه ابن منظور فقال: «النَّشِيدُ: رَفْعُ الصَّوْتِ، وكَذَلِكَ الْمُعَرَّفُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّعْرِيفِ، فَسُمِّيَ مُنْشِداً، وَمِنْ هَذَا إِنْشَادُ الشِّعْرِ، إِنَّمَا هُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ... والنَّشِيدُ: الشِّعْرُ الْمُتَنَاشَدُ بَيْنَ الْقَوْمِ، يُنْشِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً،... وَالنَّشِيدُ مِنَ الأَشْعَارِ: مَا يُتَنَاشَدُ »[2].

وأما في الاصطلاح، فإن النشيد لون جديد من ألوان التعبير الشعري، يرتبط ارتباطا وثيقا بمختلف قطاعات الأمة سواء كانت اجتماعية أو سياسية[3]، وهو مرتبط بالشعر الإصلاحي، لأنه ينادي أحيانا بالحث على العلم ويدعو إلى الوحدة ويمجد الماضي[4]. والأناشيد « أشكال وأنواع من حيث موضوعاتها وبناءاتها العروضية، فقد كان لروح الحماسة التي تحملها، وسهولة وعذوبة الكلمات التي تأتي من خلالها، وللإيقاعات التي تصحبها، الأثر الكبير في نفوس الناس»[5].

فيبدو إذن، من خلال هذا التعريف الاصطلاحي للنشيد، بأنه لون جديد من ألوان التعبير الشعري المستحدثة في الشعر العربي، وكان ارتباطه أول الأمر وثيقا بالقضايا السياسية التي كانت تجتاح العالم الإسلامي أيام الاستعمار الغربي، لتسري بعد ذلك إلى مختلف القضايا التي تمس الحياة الاجتماعية من خلال الهياكل التي تنظمه، كالمنظمات والجمعيات أو الأحزاب.

وهذا يعني أن النشيد، شكل من أشكال التعبير الشعري المعبرة عن حياة الناس والمجتمع، والملتصق بوجدانه ونبضه الذي يعبر من خلاله، إما عن الرفض أو القبول لكل ما يستجد في حياته السياسية أو الاجتماعية بالدرجة الأولى.

ويبدو من خلال استعراض ديوان الشعر العربي الحديث، أن النشيد قد بدأ يشيع في الإبداع العربي مع بداية القرن الماضي، سواء في المشرق أم في المغرب [٦]، ولاشك في أن للظروف السياسية المأساوية التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية تحت السيطرة الاستعمارية، أثرا بارزا في ميلاد النشيد في الشعر العربي الحديث، خاصة وأن طبيعة مضمونه، وطريقة نظمه مع إيقاعه المؤثر، جعله يتسرب إلى أكبر شريحة ممكنة من المجتمع؛ خاصة وأن جل الأناشيد التي بين أيدينا منذ بدايات القرن الماضي، تحمل مضامين إسلامية بارزة، مما يجعلها أقرب إلى وجدان الأمة، وأكثر تعبيرا عن آلامها وآمالها، وهي تتطلع نحو الانعتاق والتحرر، وهو ما يجعلها محفوظة عن ظهر قلب لدى الخاصة والعامة، لأن المصاب واحد لدى كل شرائح المجتمع.

وهذه المضامين هي التي ظلت مهيمنة على النشيد الإسلامي البحت، وهو ينأى مع مرور الأيام بنفسه عن الأناشيد التي استحدثت فيما بعد، والتي أصبحت شعارات لهيئات حزبية أو سياسية أو فكرية ذات مرجعيات مختلفة، قد تبعد قليلا أو كثيرا عن المرجعية الإسلامية؛ فتَشَكَّل بذلك نشيد إسلامي خالص يستمد مضامينه من كتاب الله عز وجل، ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولا شك في أن لعلي أحمد باكثير رحمه الله، اليد الطولى في تأسيسه على هذا النحو في الشعر العربي الحديث عموما، وفي الشعر الإسلامي منه بوجه خاص.

***

لم ينشر علي أحمد باكثير ديوانا في حياته وظلت أناشيده مع بقية شعره مبددة في الصحف والمجلات وفي ملفاته الخاصة بمنزله في القاهرة حتى قيض الله لها الباحث د.محمد أبوبكر حميد الذي أصبح مرجعا في سيرة حياة باكثير

وتراثه الأدبي، فجمع أعماله المخطوطة وأصدر من دواوينه الشعرية ديوانه الأول (أزهار الربا في شعر الصبا) ثم الثاني(سحر عدن وفخر اليمن) وتحت الطبع الآن ديوانيه (صبا نجد وأنفاس الحجاز) و (وحي ضفاف النيل) وذلك ضمن الأعمال الكاملة لباكثير التي يعدها للنشر وستصدر عن المجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر ووزارة الثقافة اليمنية هذا العام ٢٠١٠م، وقد أمدني د. حميد مشكورا بمجموعة الأناشيد المختارة من تلك الدواوين محور دراسة هذا البحث.

فوجدت أن علي أحمد باكثير رحمه يصبو من خلال هذه الأناشيد التي نظمها في مراحل حياته المختلفة، ومن خلال استقراء مضمونها، أنه كان يريد إعادة الوصل بين ماضي النشيد الإسلامي وحاضره، خاصة وأنه كان يعلم بأن ميلاد النشيد الإسلامي كان في وقت مبكر جدا من الدعوة الإسلامية، وأن النشيد الإسلامي كان مما يُنْشَدُ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته بخاصة، وهو ينشر نور الله جل و علا في دياجير الشرك في جزيرة العرب.

ففي صحيح البخاري نجد أحاديث كثيرة تنص على أن الأناشيد كانت تنشد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع، وربما أنشدها هو أيضا صلى الله عليه وسلم، من ذلك مثلا، ما أخرجه البخاري من طريق سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلاً فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ لِعَامِرِ بْنِ الأَكْوَعِ أَلاَ تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ؟ قَالَ: وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِراً فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا	وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا	وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا	إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا
وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا	

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ هَذَا السَّائِقُ ؟ قَالُوا عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ فَقَالَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ...»[٧]، و قد قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله أثناء

شرح هذا الحديث: «ونقل ابن عبد البر الاتفاق على إباحة الْحُدَاء، وفي كلام بعض الحنابلة إشعار بنقل خلافه فيه، ومانعه مَحْجُوجٌ بالأحاديث الصحيحة، ويلتحق بالحداء هنا، الحجيج المشتمل على التشوق إلى الحج بذكر الكعبة وغيرها من المشاهد، ونظيره ما يحرض أهل الجهاد على القتال، ومنه غناء المرأة لتسكين الولد في المهد»[8]، ثم خلص بعد ذلك إلى قوله رحمه الله: «ومحصله أن الحداء بالرجز والشعر لم يزل يفعل في الحضرة النبوية، وربما التمس ذلك، وليس هو إلا أشعار توزن بأصوات طيبة وألحان موزونة، وكذلك الغناء أشعار موزونة تؤدى بأصوات مستلذة وألحان موزونة»[9].

ومن ذلك أيضا،ما أخرجه البخاري من طريق أنس بن مالك رضي الله عَنْهُ، قَالَ: «جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الإِسْلاَمِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

قَالَ يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الآخِرَهْ فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ ، قَالَ يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ.»[10]

وبعد أن شرح ابن حجر ما في هذا الحديث من الفوائد، قال: «وفيه أن في إنشاد الشعر تنشيطا في العمل، وبذلك جرت عادتهم في الحرب، وأكثر ما يستعملون في ذلك الرجز.»[11]

فهذا يعني أن باكثير رحمه الله، كان يصبو إلى إحياء النشيد الإسلامي من خلال الأناشيد التي نظمها، ليعيد الفرع إلى أصله، ويربط وجدان الأمة الإسلامية الحديث والمعاصر، بينابيعه الأصلية الصافية التي أسس لها شعراء النبي صلى الله عليه و سلم، خاصة وأن مقاصد النشيد الإسلامي، حديثه وقديمه، أصله وفرعه، هي مقاصد واحدة: ففي صدر الدعوة الإسلامية، كان النشيد يزرع في نفوس المسلمين روح الإباء والتحدي لإحقاق الحق وإزهاق الباطل

والظلم الذي كان يمارَس عليهم لإطفاء نور التوحيد سواء من مشركي جزيرة العرب، أو من اليهود الذين كانوا ينتهجون مختلف الأساليب للقضاء على الدعوة الإسلامية في مهدها؛ وفي العصر الحديث فإن البلاد الإسلامية كانت تعاني المعاناة نفسها من بطش المستعمر وظلمه، وسعيه الدؤوب لإطفاء جذوة التوحيد والإيمان في قلوب ملايين المسلمين.

وعليه، فإذا كان النشيد الإسلامي من بين أشكال التعبير الأولى التي كانت تذكي الحماس والثقة، والتنشيط ــ كما قال ابن حجر رحمه الله ــ في صفوف المسلمين في حلهم وترحالهم، فإن باكثير رحمه الله، آمن بأن هذا النشيد الإسلامي نفسه، ينبغي أن يظل من بين هذه الأشكال التعبيرية التي تزرع في نفوس الأمة الأمل في إشراق جديد، فتعود إليها عزتها كما كانت أول مرة، وهو الأمر الذي أكد عليه رحمه الله في كل أناشيده، خاصة و أنه كان يرى بأن أشد الأخطار السياسية التي كانت تحدق بالأمة الإسلامية، هي أخطار الاستعمار والصهيونية[12].

١ــ الدلالات المهيمنة على أناشيد باكثير

فَمِنْ خلال دراسة أناشيد باكثير رحمه الله، يتضح بأن هناك دلالات مختلفة كان يصدر عنها في إبداعه هذا، لكنها تصب في معظمها في اتجاه واحد، هو الأمل في تحرر البلاد الإسلامية من ظلم الاستعمار بشتى الوسائل، حتى تعود إلى المسلمين عزتهم وحريتهم التي ما فتئ الاستعمار الغربي يسعى جاهدا إلى طمس معالمها بكل ما أوتي من قوة.

ولكن الملاحظ عند تحليل كل نشيد على حدة، هو أن باكثير قد رتب رؤيته العميقة إلى واقع الأمة الإسلامية في علاقتها بالاستعمار، أو حتى بِسِوَاهُ، ترتيبا واضح المعالم ، حتى ليبدو وكأن هذه الأناشيد تلخص الرؤية الشاملة التي كان يصدر عنها في حياته الإبداعية كلها، بل و حتى في منهجه الشامل في الحياة؛ ولعل هذه الرؤية تتضح أكثر من خلال الوقوف عند كل دلالة على حدة، كما يظهر من خلال الفقرات التالية.

أ ــ الإسلام دين سلام

وقد عبر عن هذا في نشيد عنوانه «لحن السلام»، وأعتقد أن باكثير رحمه الله، من خلال هذا النشيد، يفصح عن الأصل الأعظم الذي يصدر عنه، والمنهج الأصفى الذي نذر نفسه لخدمته وللدفاع عنه، وأكثر من ذلك، أنه يعبر في ثقة المؤمن عن أن هذا المنهج أو العقيدة هي الوحيدة التي بمقدورها أن تجمع بين البشر، وأن توحد بين مشاعرهم، وتعيد إليهم الكرامة الإنسانية التي قتلتها الضغائن والأحقاد والحروب، فحادت بها عن مستوى التكريم الإلهي الذي كرم الله عز وجل به الإنسان أول مرة، يقول رحمه الله:

لَحْنٌ جَمِيلٌ طَابَ ... فِي الأَسْمَاعِ لَحْنَا
وَاسْمُ السَّلاَمِ

يَحْمِي شُعُوبَ الأَرْضِ ... أَنْ تُطْحَنَ طَحْنَا
نَدِينُ دِينَ الْحُبِّ ... نَحِبُّ كُلَّ شَعْبِ
حُبَّ الْحَيَاةِ لِلتُّرْبِ ... حُبَّ النَّدَى لِلْعُشْبِ
لَحْنُ السَّلاَمْ
لاَ حَرْبَ مُنْذُ الْيَوْمِ
نَدِينُ دِينَ الْحُبِّ ... وَالْحُبُّ أَسْمَى دِينْ
حُبُّ كُلِّ شَعْبِ ... مِنَ الْغَرْبِ أَوْ فِي الصِّينِ
حُبَّ النَّدَى لِلْعُشْبِ ... يَضُمُّهُ فِي لِينْ
لَحْنُ السَّلاَمْ
الأَرْضُ وَالسَّمَاءْ ... يَحْدُوهُنَّ الْحُبُّ
يَهِمْنَ السَّنَا وَالْمَاءْ ... فَيُنْبِتُهُنَّ الْعُشْبُ
لَحْنُ السَّلاَمْ
وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنْ ... بِالْحُبِّ مَحْكُومْ
بِيَدِهِ السَّخَاءُ وَالْعَوْنْ ... وَالْحَظُّ مَقْسُومْ
لَحْنُ السَّلاَمْ

مَا لِلْوَرَى يُعَادِي ... بَعْضُهُمْ بَعْضَا
بِالْحَرْبِ وَالْجِلاَدِ ... قَدْ شَوَّهُوا الأَرْضَا
لَحْنُ السَّلاَمْ
لاَ حَرْبَ مُنْذُ الْيَوْمِ ... بَيْنَ بَنِي الإِنْسَانْ
فَكُلُّ قَوْمٍ قَوْمِي ... وَفَازَ ذُو الإِحْسَانْ
لَحْنُ السَّلاَمْ
بِالْحُبِّ وَالسَّلاَمِ ... سَنُسْعِدُ الدُّنْيَا
نَعِيشُ فِي وِئَامِ ... لاَ ظُلْمَ لاَ بَغْيَا
لَحْنُ السَّلاَمْ
لَحْنٌ جَمِيلٌ طَابَ ... فِي الأَسْمَاعِ لَحْنَا

فالشاعر يجول بعينيه في شرق البلاد وغربها، فلا تقع إلا على الصراعات والحروب، وكأن شعوب الأرض قد سئمت من هذا النمط من الحياة، فتبدو توّاقة إلى الحماية من هذا التطاحن والظلم و البغي لتعيش في سلام ووئام، ولن تجد الإنسانية هذه الحماية إلا في ظل الإسلام الذي هو مشتق من السلام، والذي هو أصلا، من أسماء الله جل وعلا.

فإذا كانت الحروب والصراعات تبيد البشر وتطحنهم طحنا ــ كما قال رحمه الله ــ فإنهم في حاجة إلى بديل عن هذا التطاحن، أي أنهم في حاجة إلى حياة، أو إلى من يعيد الحياة إلى الإنسان، ولن يكون ذلك إلا بالسلام والإسلام، حيث الوئام و العدل؛ والأجمل في هذا السياق، أن باكثير رحمه الله، قد عمد إلى التعبير عن الأمل والحب بين الإنسانية كلها، بتعبير إيحائي جميل، وبخاصة في قوله«حُبَّ النَّدَى لِلْعُشْبِ»، وهي عبارة تحمل دلالات عميقة تعبر عن كل معاني الحياة والوداعة، لأن كلا من الندى والعشب، رمز للحياة والاستمرار، بما يدلان عليه من الخصب والإمراع الذي تتحرك معهما دواليب الحياة في أسمى معانيها، بعيدا عن التطاحن والصراعات التي لا تحمل في طياتها إلا معاني القحط، وكل عناصر الموت و الفناء.

فكأنه بذلك يضع بين يدي المتلقي صورتين متضادتين تمام التضاد: صورة الحياة التي يحيل عليها الندى والعشب، وصورة الطحن، مع كل ما يتبادر من خلالها إلى الأذهان من صور الخراب والموت، ليترك المتلقي بعد ذلك يختار من الصورتين أَلْيَقَهُمَا به؛ ولا شك في أن الأليق بالفطرة الإنسانية السوية، أن تختار كل ما يمت إلى الحياة الكريمة من وئام و سعادة، وهو المنهج المختار لدى الشاعر، لأنه منهج ينبع من رحم الإسلام الذي يكفل الحياة الكريمة لكل الناس.

وبالتالي، فإنه من الطبيعي جدا أن يستنكر الشاعر على من يختار غير الإسلام منهجا في الحياة ليعيش أبد الدهر بين القتل والدماء، يقول:

لَحْنُ السَّلَامْ

مَا لِلْوَرَى يُعَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضَا
بِالْحَرْبِ وَالْجِلَادِ قَدْ شَوَّهُوا الأَرْضَا

فالحرب والجلاد مظهران من مظاهر تشويه الحياة الإنسانية، وعليه، فهما زَيْغٌ عن الطريق الذي ينبغي أن يعيش فيه الإنسان؛ لذلك، فمن الطبيعي أن يستهجن الشاعر هذا السلوك المنافي للفطرة الإنسانية، ويشدد في النكير على من يسلك هذا الدرب المعبد بالدماء؛ واللافت للانتباه، أن الشاعر رحمه الله، لا يُحَمِّلُ المسؤولية لكل بني الإنسان، وإنما يحملها للغرب الاستعماري الذي زاغ فعلا عن السلوك الإنساني القويم، فتوحش وتكالب على بلاد المسلمين أملا في أن يخنق«لحن السلام»، وأن يطفئ جذوة الإسلام، وهو ما يتضح في نشيد «إلى أندنوسيا الباسلة»، حيث يقول:

مَا يُرِيدُ الْغَرْبُ مِنْهَا؟ إِنَّهَا تَبْغِي السَّلَامَا
إِنَّمَا تَدْفَعُ عَنْهَا مَنْ بِهَا رَامَ اهْتِضَامَا
اِسْلَمِي يَا أَنْدَنُوسِيَا

فإذا كان الشاعر هو الذي أنشد «لحن السلام» عشقا لكل مظاهر السلام النابعة من رحم الإسلام، فهو هنا يسير في هذا النشيد على المنهج نفسه،

فأندنوسيا ــ مولده ــ لا تريد سوى السلام، ولم تختر من مناهج الحياة إلا الإسلام، فماذا يريد الغرب منها؟ وبأي حق يريد أن يهضم حقها في السلام، فكأني به يحدد الضحية والجلاّد، فأندنوسيا، ومن خلالها العالم الإسلامي كله، قد اختارت دين الإسلام منهجا في الحياة، بينما الغرب طغا وتجبر على هذه البلاد، لأنه اختار الحرب منهجا له في الحياة، فكان طبيعيا ألا يلتقي الطرفان، وأن ينشأ بينهما الصراع والتضاد، تماما كما ينشأ الصراع والتضاد بين الحزب والسلام، وبين الموت والحياة.

ب ــ الأمل في مستقبل جديد

إذا كان الأصل الذي يصدر عنه الشاعر هو السلام والإسلام، كما رأينا، فإنه من الطبيعي جدا أن يثور الشرق المسلم دفاعا عن كرامته، وحرصا على منهجه في الحياة، وتَوَقاً إلى الخصب والإمراع والحياة الكريمة مهما كلفه ذلك من ثمن، لأن الثورة آنئذ مُبَرَّرٌ مَعْقُولٌ، لذلك نجد أن نوازع الثورة والتمرد فارت في نفس الشاعر رحمه الله، وهو يدفع بأمته إلى التحدي والإباء لتستعيد عزتها وإشراقها الذي عاشت معه أمدا طويلا قبل أن يجتاحها الغرب المتوحش، يقول في نشيد «لك العلا يا ليبيا»:

تَأَلَّقِي عَلَى الدُّنَا تَلأْلُئِي كَالْكَوْكَبِ
وَلْتُشْرِقِي عَلَى الْوَرَى بِنُورِ مَجْدِ الْعَرَبِ
هُمْ أُمَّةُ الْمُسْتَقْبَلِ وَهُمْ مَنَاطُ الأَمَلِ
لِلْعَالَمِ الْمُزَلْزَلِ وَعَيْشِهِ الْمُضْطَرِبِ

فالشاعر يبشر بالانبعاث الذي اجتاح أمته لتشق طريقها نحو المستقبل في ثقة وثبات، فهذه ليبيا ترفع التحدي، وتثور للكرامة الإسلامية ضد الاستعمار الغربي، وكأنها بذلك لا تنتقم لنفسها فقط، وإنما تنتقم للأمة الإسلامية بأكملها، وهذا ما حمله على هذا الانتشاء وهو يحس بالأَنَفَةِ والاعتزاز، فما تزال في جسد هذه الأمة عروق تنبض بالحياة، لذلك لم يتمالك الشاعر أن وظف معجما يشعُّ بالألق والأمل «تَأَلَّقِي، تَلأْلُئِي، بِنُورِ المجد، أُمَّةُ الْمُسْتَقْبَلِ

مَنَـاطُ الأَمَـلِ»، كل هذا وسط معجم آخر له دلالته الخاصة «عَـالَمٍ مُزَلْـزَلٍ، عَيْشٍ مُضْطَرِبٍ».

حيث نجد باكثير رحمه الله، يرسم مرة أخـرى صـورتين متضـادتين: صورة الأمل والإشراق والنور، وهي تغمر أمته من كـل جانـب، و صـورة مغايرة قاتمة مظلمة، هي صورة العالم المزلزل المضطرب بالحروب والدماء، لكن الْغَلَبَةَ والهيمنة للصورة الأولى كما يظهر بوضوح من هذه الأبيات.

وهذه الصورة، صورة الإشراق والانبعاث، نجدها أيضا في تعبير أثيري خلاب، ينتشي معه الشاعر أيما انتشاء، وهو يتحدث عـن الـيمن بلـدِهِ الأصلي، في نشيد «دولة الجنوب»، حيث يقول:

يَا دَوْلَـةَ الْجَنُـوبْ ... يَـا بَلْسَمَ الْجِـرَاحْ
فِي ظُلْمَةِ الْخُطُـوبْ ... أَشْرَقْتِ كَالصَّبَـاحْ
فِـي حَوْمَةِ الْجِهَـادْ ... وَالْحَـرْبُ فِي ضَرَمْ
وُلِدْتِ فِـي مِهَـادْ ... الْعِـزِّ وَالشَّـمَمْ
وَافَـى بِكِ الْقَضَاءْ ... لأُمَّـةِ الْـعَـرَبْ
بُشْـرَى مِنَ السَّمَاءْ ... بِالنَّصْـرِ وَالْغَلَـبْ
اللهُ أَكْـبَـرُ ... فِي يَوْمِـكِ الْعَظِيـمْ
عَـادٌ وَحِمْـيَـرُ ... هَبَّـا مِـنَ الرَّمِيـمْ
يَمْشِي مَعَ الْيَمَـنْ ... فِـي دَارَةِ الشَّـرَفْ
وَالْوِحْـدَةُ الثَّمَـنْ ... وَالسُّؤْدَدُ الْهَـدَفْ
لِـوَاؤُكِ الْجَدِيـدْ ... يُمْنٌ عَلَى الْعَـرَبْ
فَالْيَمَـنُ السَّعِيـدْ ... مِيـلَادُهُ اقْتَـرَبْ

فنلاحظ هنا أن الشاعر يطوي التاريخ طيا، ليعود باليمن إلى زمن الأَقْيَالِ و التَّبَابِعَةِ، بكل ما يحمله من وهج التاريخ، وثياب العز؛ ف«عادٌ و حِمْيَرٌ»، لم يموتا إلى الأبد، فقد هبا من جديد، وانبعثا من الرميم مع أحفادهم الذين أوقـدوا مشاعل التحدي ليصنعا «اليوم العظيم» اعتمادا على «الله أكبر»، فكـأن هـذا

البعث الجديد، قد صنعته المرجعية الإسلامية التي يراها الشاعر، وهو مُحِـقٌّ، مرجعيةً قادرةً على صنع تاريخ أكثر إشعاعا مما كان عليه مـن قبـل، حيـث يجتمع «الشرف الْمُؤَثَّلُ والْمُتَأَصِّلُ» في أهل اليمن، إلى جانـب الـدعوة إلـى «الوحدة»، سعيا إلى «العلا والسؤدد» ب«لِوَاءٍ جديد»، يحمل الْيُمْنَ إلـى كـل البلاد الإسلامية، لتشهد ميلادا جديدا على وشك الحدوث.

وهنا نلاحظ أن الفكرة التي ينطلق منها الشاعر، وهو يجول فـي رحاب أمته الإسلامية، هي فكرة ثابتة، كان يرغب كل الرغبة في تحقيقها على أرض الواقع، فهنا يقول عن اليمن:

فَالْيَمَـنُ السَّعِيـدْ ... مِيـلَادُهُ اقْتَـرَبْ

ومن قبل قال عن ليبيا:

هُمْ أُمَّـةُ الْمُسْتَقْبَلِ ... وَهُـمْ مَنَـاطُ الأَمَلِ

فالميلاد الجديد، وأمة المستقبل، كلاهما هَمٌّ كان يراود الشاعر رحمه الله، ويريد أن تعيشه أمته حقيقة، لتخرج من قيد الاستعمار والْمَخَـاضِ، إلـى أفـق التحرر والميلاد، لتستعيد بذلك عزتها من جديد، فيلتئم الماضي الْمُشْـرِقُ مـع الحاضر الْمُنْبَعِثِ، لتشكيل مستقبل المجد والحرية.

ج – الدعوة إلى الحرية

إن تحقيق العنصر السابق الذي هو الأمل في مستقبل جديد، لا يتحقق عند باكثير رحمه الله، إلا بالتمرد عن قيود الاستعمار، وتحقيق الانفصال عنه مهمـا كلف ذلك من ثمن، لذلك فإن التغني بالحرية شغلت حيزا مهما من أناشيده رحمه الله، لأنها الهدف الذي يريد، والأمل الذي يتوق إليه، خاصة وأنه يبصر بِنَاظِرَيْهِ كيف أن الغرب الاستعماري يعيث فسادا في كل بلاد المسلمين بـلا اسـتثناء، يستعبد أهلها ويستنزف خيراتها، ويسعى ليل نهار إلى نسف دينهـا ومعتقـدها، فكل ثورة أو تمرد على الاستعمار، يرى فيها باكثير رحمه الله خطوة على درب الحرية للعالم الإسلامي كله ، يقول مخاطبا ليبيا:

جَمَعْتِ شَمْلَ قَوْمِنَا ... فِي شَرْقِكُمْ وَالْمَغْرِبِ
فَأَنْتِ بُشْرَى لِلدُّنَا ... بِقُرْبِ بَعْثِ الْعَرَبِ
حَرَّرْتِ مُلْكَ الْعَرَبِ ... عَلَى تُخُومِ الْمَغْرِبِ
فَكُنْتِ أَقْوَى سَبَبِ ... لِجَمْعِ شَمْلِ الْعَرَبِ

فلا يخفى ما هذا المقطع من تجسيد للاتساق التام بين أفكار باكثير رحمه الله ــ كما قلت سابقا ــ وهو ينظر إلى كل البلاد الإسلامية، فعن اليمن يقول: «وَالْوِحْدَةُ الثَّمَنْ»، وهنا عن ليبيا «جَمَعْتِ شَمْلَ قَوْمِنَا»، وهناك قال عن عاد وحِمْيَرٍ «هَبًّا مِنَ الرَّمِيمْ»، وهنا يقول عن ليبيا «بِقُرْبِ بَعْثِ الْعَرَبِ»، فالحلم الأكبر الذي يريد الشاعر تحقيقه هو الحرية، لكن الطريق إليها لا يكون إلا بالوحدة، وبانبعاث الهمم، وإيقاظ الضمائر من جديد.

فكأنه بذلك يعبر وبعمق عن أن سبب غياب الحرية في العالم الإسلامي اليوم ــ في زمن باكثير رحمه الله، وما يزال الأمر كذلك إلى الآن ــ إنما يكمن في التشتت والتفرق الذي يسعى الاستعمار بكل قواه إلى تحقيقه وزرعه بين أعضاء الجسد الإسلامي كله، مغربا ومشرقا، بالدسائس والكيد الذي يتقنه أيما إتقان، وكل هذا من أجل أمرين في غاية الأهمية، حام حولهما باكثير رحمه الله في كل إبداعه شعرا ونثرا، وهما:

أ ــ تحقيق الانفصال بين حاضر الأمة الإسلامية و تراثها المجيد.

ب ــ قتل الرغبة في ضمائر المسلمين في العودة إلى هذا التراث و تَزْهِيدِهِمْ فيه.

لهذا فإننا نلاحظ في أناشيد باكثير رحمه الله حَوَمَاناً كثيرا حول ضرورة الوحدة بين المسلمين أنفسهم، والوحدة بين حاضرهم وماضيهم، كما يظهر من خلال إصراره الشديد على دلالات «البعث» و«الميلاد الجديد»، وهما الطريق الوحيد نحو «الأمل والمستقبل والحرية».

ففي المقطع أعلاه عن ليبيا، بَنَى الحرية على جمع الشمل، فكأنه بذلك يقول بأن الوحدة الصغرى بين أبناء ليبيا، هو الذي حقق الحرية، تماما كالوحدة

الكبرى بين أبناء الأمة الإسلامية، التي هي الطريق الوحيد نحو الحرية الكبرى للعالم الإسلامي، ليشق طريقه نحو «العلا والميلاد الجديد»، وهذا ما يعبر عنه بوضوح وهو يخاطب أندنوسيا، حيث يقول:

اسْتَقَلَّتْ أَنْدَنُوسْيَا ... وَهْيَ لِلْكُلِّ صَدِيقَةْ
هَبَّتِ الْيَوْمَ لِتَحْيَا ... حُرَّةً وَهْيَ خَلِيقَةْ
اسْلَمِي يَا أَنْدَنُوسْيَا
اسْلَمِي يَا دُرَّةَ الإِسْلاَ ... مِ فِي الشَّرْقِ الْقَصِيْ
يُشْرِقُ الْقُرْآنُ مِنْهَا ... فِي بِسَاطٍ سُنْدُسِيْ
اسْلَمِي يَا أَنْدَنُوسْيَا
يُشْرِقُ الْقُرْآنُ مِنْهَا ... فِي سُهُولٍ وَجِبَالِ
كُلُّهَا مَثْوَى نَعِيمٍ ... كُلُّهَا مَجْلَى جَلاَلِ
اسْلَمِي يَا أَنْدَنُوسْيَا
إِنَّ قُرْآنَكِ يَأْبَى ... أَنْ تَذِلِّي لِقَوِيْ
إِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلَّهِ ... تَعَالَى وَالنَّبِيْ
اسْلَمِي يَا أَنْدَنُوسْيَا.....

فالشاعر يبني النتائج على المقدمات لتحقيق الهدف الأسمى، الذي هو الحرية والعيش تحت ظلال القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا كانت النتيجة هي الاستقلال/ الحرية، فإنها انْبَنَتْ على مقدمة هي هبوب/ انبعاث أهل أندنوسيا، لأنهم عشاق الكرامة ورافضو المهانة، وبتحقيق الحرية، تحقق الهدف الأكبر الذي هو إشراق القرآن الكريم على أندنوسيا، وهذا يعبر مرة أخرى على أن الشاعر رحمه الله، يرسم صورتين متضادتين، هما:

أ ــ صورة الاحتلال والإذلال الذي غيّب الحرية، وأطفأ نور القرآن الكريم، وهي صورة مظلمة وقاتمة.

ب ــ صورة الانبعاث والتمرد الذي حقق الحرية والاستقلال، فأشرق نور القرآن الكريم من جديد على أندنوسيا، وهي صورة، كما هي واضحة في النص، مشرقةٌ ومضيئةٌ.

وكأني بالشاعر بهذا التعبير، يلفت نظر الأمة الإسلامية إلى أن الهدف الأكبر للغرب الاستعماري، إنما هو إطفاء نور الله عز وجل في العالم الإسلامي، ليحل محله عقيدته هُوَ، إمعانا في إذلال الشرق المسلم، وسعيا حثيثا منه إلى تحقيق الهدفين المشار إليهما قبل قليل؛ لكن الأندنوسيين فهموا المخطط فرفضوه، فكان التمرد والثورة لاستعادة العز المفقود، وضحوا من أجل ذلك بكل شيء مما تحدث عنه في باقي النص، فحققوا الحرية وأشرق القرآن الكريم، وعادت العزة المُغتَيَبَة «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» المنافقون: ٨.

ولكن تحقيق هذا الهدف في أندنوسيا، ومن خلالها في العالم الإسلامي، ليس سهلا ولا ميسرا، فالطريق إليه مفروش بالتضحية والفداء والجهاد، لذلك فإن عنصر الجهاد أخذ حيزا هاما من أناشيد باكثير رحمه الله يستحق وقفة خاصة.

د ــ دلالة الفداء و الجهاد

سبق أن قلت بأن باكثير رحمه الله يبني نتائجه على مقدماته، كما أنه يشترط دائما لتحقيق هدف لاحق، تحقيقَ هدف سابق عنه، لابد من المرور منه لولوج الهدف الذي يريده؛ و عليه، فإن تحقيق الحرية لشهود إشراقة القرآن، لابد من التضحية و الجهاد ضد الغرب الاستعماري؛ لهذا نجد أن هذه الدلالة هي الأكثر هيمنة على أغلب أناشيد باكثير رحمه الله، خاصة وأن العالم الإسلامي آنئذ ،كان يرزح تحت نَيْرِ الاستعمار في كافة بلاد الإسلام، لهذا استوجب منه رحمه الله التركيز على الجهاد من أجل التحرر والاستقلال.

والملاحظ في هذا الصدد، أن باكثير رحمه الله، وهو يتحدث عن الجهاد، يتحدث بحسه الرهيف عن جهادين متكاملين لكل منهما وقع خاص في النفس، وهما:

أ ــ الدعوة إلى الثورة والجهاد لتحرير كل بلدان العالم الإسلامي.

ب ــ تخصيص أبناء فلسطين بخطاب خاص لمزيد من الإصرار على مقاومة العدو الصهيوني.

فأما العنصر الأول، فإننا نلاحظ أنه يخاطب فيه أبناء مختلف بقاع العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، للثورة ضد الاستعمار، وبكل ما أوتوا من قوة لاستعادة حريتهم وكرامتهم، حيث نلاحظ أنه يعمد إلى توظيف معجم حماسي بامتياز، والأناشيد ما وضعت أصلا إلا للحماسة كما قلنا، يجسد روح الثورة والتمرد التي كانت تشتعل بين جوانحه، يقول مثلا، في نشيد «المغرب العربي»:

إِلَى الْجِهَادِ يَا أُسُودَ الْمَغْرِبْ ... بِالنَّارِ وَالْحَدِيدِ وَالدَّمِ الأَبِيّ
حَتَّى تُضِيءَ الشَّمْسُ أَرْضَ الْمَغْرِبْ ... وَطَهِّرُوا حِمَاكُمُ الحرَّ الأَبِيّ
مِنْ رِجْسِ كُلِّ وَغْدٍ أَجْنَبِي ... إِلَى الْجِهَادْ

وهذا الحماس نفسه نجده في مخاطبته أهل ليبيا، فيقول:

شَعْبُكَ الْمَجْدَ أَهَابْ ... أَنِ اقْتَحِمْ مِنْ كُلِّ بَابْ
مَا دُونَكَ الْيَوْمَ حِجَابْ ... يَا أَيُّهَا الشَّعْبُ الأَبِيْ
لَكَ الْعُلاَ يَا لِيبْيَا
بَنُوكِ أَبْطَالُ الْكِفَاحْ ... بَنَوْا عُلاَكِ بِالسِّلاَحْ
عَلَى السُّفُوحِ وَالْبِطَاحْ

فالشاعر يؤكد على أن بناء المجد والعلا، لا يكون إلا على الأسنة والرماح، وباقتحام كل باب على العدو المعتدي، فما دام العدو يأتي على الأخضر واليابس في بلاد المسلمين، وتسلط عليهم بالحديد والنار، فلا بد من الجهاد والسلاح للتخلص منه؛ فما دام الواقع مظلما تحت نير الاستعمار، وأن الغد مشرق تحت ظلال الاستقلال، فلا بد من الصبر والفداء، لأنهما ثمن الخلاص من الإسَارِ، ومعانقة الحرية، وهذا ما صرح به في قوله وهو يشيد باستقلال ليبيا:

لَمْ يكِ اسْتِقْلاَلُنَا مِنْحَةَ مَانِحْ ... بَلْ أَخَذْنَاهُ غِلاباً وَاقْتِدَارْ
طَالَمَا صُنَّاهُ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحْ ... ثُمَّ أَطْلَعْنَاهُ فِي الدُّنْيَا مَنَارْ
بِالدَّمِ الْمُهْرَاقِ فِي سَاحِ الْجِهَادِ ... وَعَلَى الأَشْلاَءِ مِنَّا وَالْجَمَاجِمْ
شَيَّدَ الرَّحْمنُ فِي خَيْرِ الْبِلاَدِ ... دَوْلَةً كَالطَّوْدِ أُسّاً وَدَعَائِمْ

وهذا أيضا، ما ألح عليه كثيرا وهو يخاطب اليمن:

يَا دَوْلَـةَ الْجَنُـوبْ يَـا بَلْسَمَ الْجِـرَاحْ
فِي ظُلْمَةِ الْخُطُـوبْ أَشْرَقْتِ كَالصَّبَـاحْ
فِـي حَوْمَةِ الْجِهَـادْ وَالْحَـرْبُ فِي ضِرَمْ
وُلِدْتِ فِـي مِهَـادْ الْعِـزِّ وَالشَّـمَمْ
وَافَـى بِكِ الْقَضَـاءْ لأُمَّـةِ الْـعَـرَبْ
بُشْـرَى مِنَ السَّمَاءْ بِالنَّصْـرِ وَالْغَلَـبْ

فالشاعر بين صورتين أو واقعين، واقع كائن، هو «ظُلْمَـةُ الْخُطُـوبِ»، تحت ديجور الاحتلال وبطشه، وواقع ممكن، هو «إِشْرَاقَةُ الصَّبَـاحِ»، حيث «بَلْسَمُ الْجِـرَاحِ» وضياء الحرية؛ لكن قنطرة العبور صـعبة، ولا مَفَـرَّ مـن المرور عبرها لتجاوز هذا الواقع الكائن والانفصال عنـه نحـو ذلـك الواقـع الممكن، وهذه القنطرة هي «حَوْمَةِ الْجِهَـادْ» و«ضِـرَامُ الْحَـرْبِ»، لأن ثمـن الحرية يكون دوما بالأنفس و الدماء، قبل أن يشرق الغد بنصر الله جل وعـلا وغَلَبِه، ليستعيد المسلمون عزهم و شَمَمَهُمْ.

وعليه، فإنه من الواضح جدا، أن باكثير رحمه الله يضـع مُتَلَقِّيـه بـين وضعين مختلفين تمام الاختلاف، وبين صورتين متضادتين تمام التضاد، الأولى تعبر دائما عن واقع العالم الإسلامي المعيش بظلمته وهوانه، والثانية تعبر دائما عن الواقع المأمول، بِحُرِّيَّته وضيائه، والجسر بينهما، يكون دائما هـو الجهـاد والفداء، وحسبنا أن نضيف هذا المثال الذي يخاطب فيه أندنوسيا، لتأكيـد مـا نذهب إليه، حيث يقول:

اُثْبُتِـي يَـا أَنْدَنُوسِيَـا كَرَوَاسِـيكِ الشَّـوَامِـخْ
قُوَّةُ الإِيمَانِ تَـرْعَا كِ وَمَجْـدٌ لَـكِ بَـاذِخْ
اسْـلَمِي يَـا أَنْدَنُوسِيَا
كَبَرَاكِينِـكِ كُونِـي لِلَّذِي يَبْـغِـي كِـيَـادَكْ
وَكَأَرْيَـافِـكِ لِينِـي لِلَّـذِي يَبْـغِـي وِدَادَكْ

اسْـلَمِي يَـا أَنْدَنُوسِيَا...
يَا رِيَاضَ اللهِ فِي الأَرْ ضِ اسْلَـمِي لِلْمُسْلِمِينَـا
فَـحَرَامٌ أَنْ تَكُـونِـي طُعْمَـةً لِلْمُعْتَـدِينَـا
اسْـلَمِي يَـا أَنْدَنُوسِيَا

فالعيش في ذُلِّ المعتدي، والرضا بالدَّنِيَّة حرام، لأن فيه تفريطا في حقوق المسلمين وبلادهم ودينهم، فلا بد من التخلص من الاستعمار بالثبـات والجـلاد وقوة الإيمان التي تحول كل بلاد المسلمين إلى براكين وحمم على العدو، لِـرَدِّ كيده وانتزاع الحرية والسلام منه بقوة الحديد والنار، ليعود المجد مرة أخـرى إلى أهله، ويحقق الذلة والهزيمة بالجانب الآخر أيضا؛ وهذا ما سعى إلى حـث شباب الإسلام عليه أيما إلحاح في كافة بلاد الإسلام مشرقا ومغربا، حيث يقول مثلا في نشيد «وادي اليرموك»:

هيّا إلى الجهاد فتيانَ العَـرَبْ إلى الجِـهَادِ فالجهادُ قَدْ وَجَـبْ
إلى الجِهَادِ بالقَنَا و بالقضـبْ وبالـرجومِ والقذيـفِ المُلْتَهِبْ
وباليقـينِ إنَّنَـا لَنَـحْـنُ يا وادِيَ اليَرْموكِ يا مَجْدَنَا التَّالِدْ
إنَّـا غـداً آتـوكْ يَقُـودُنَـا خَـالِـدْ
و اللهِ لاَ نَـأْلُـوكْ فِـدًى و لا نَبْـخَـلْ
إن الـدمَ المَسْفُـوكْ أَقَـلُّ مَـا نَبْـذُلْ
إلى الجِهَـادِ فالجهـادُ قَـدْ وَجَبْ[١٣]

وأما العنصر الثاني من دلالة الفداء والجهاد، والمتعلق بفلسـطين، فـإن باكثير رحمه الله قد خصها بنشيدين متميزين، أولهما «الجهاد قد وجب»، والثاني عنوانه «حرب الفداء»[١٤]، حيث نلاحظ أن الشاعر قد بلغ فيه قمة التوهج والتمرد ضد العدو الصهيوني، وهو يحث كتائب المجاهدين على الثبات والجهاد إلى أن تطهر أرض فلسطين من دنس الصهاينة.

ولا أشك في أن باكثير رحمه الله، كان بحسه الرهيف يدرك عمق مأسـاة فلسطين من بين سائر بلاد المسلمين، وكأنه كان يشعر بأن القضية الفلسـطينية

تستحق من الرعاية والاهتمام أكثر مما تستحقه باقي بلاد المسلمين، لأن طبيعة الاستعمار فيها من طينة خاصة، تأخذ وقتا أطول، وتستنزف من دماء المسلمين شيئا كثيرا، لذلك نلمس في المعجم الذي عبر به في هذا النشيد حماسا ممزوجا بالألم والتحرق على القدس، وتفصيلا أكثر في تصوير بغي الصهاينة، إلى جانب تحريض أكبر للمجاهدين، يقول:

تَصَاعَدِي تَصَاعَدِي يَا شُعْلَةَ الْفِدَاءْ
تَصَاعَدِي يَا غَضْبَةَ السَّمَاءْ
عَلَى الْمُدنسِينَ دارَ الأَنْبِيَاءْ
عَلَى الَّذِينَ شَوَّهُوا الْوُجُودْ
بِالْبَغْيِ وَالْفُسُوقِ وَالْجُحُودْ
عَلَى الْيَهُودْ

حَرْبُ الْفِدَاءِ مِنْكِ كَانَتْ عَدْلاَ عَلَى الْعَدُوِّ سَتَكُونُ الْفَصْلاَ
إِنْ يَكُنِ الْفِيلُ فَكُونِي النَّمْلاَ يُوسِعُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ قَتْلاَ
حَتَّى يَكُونَ مَثَلاً فِي الْهَالِكِينْ
مَدَى السِّنِينْ

تَطَايَرِي تَطَايَرِي يَا جَذْوَةَ الْفِدَاءْ
تَطَايَرِي يَا نِقْمَةَ السَّمَاءْ
تَطَايَرِي كَالنَّارِ فِي الْهَشِيمْ
لِتَقْذِفِي بِالْمُعْتَدِي الأَثِيمْ
وَدَوْلَةِ الْمُغْتَصِبِ الزَّنِيمْ
إِلَى الْجَحِيمْ

حَرْبُ الْفِدَاءِ مِنْكِ كَانَتْ عَدْلاَ عَلَى الْعَدُوِّ سَتَكُونُ الْفَصْلاَ
إِنْ يَكُنِ الْفِيلُ فَكُونِي النَّمْلاَ يُوسِعُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ قَتْلاَ
حَتَّى يَكُونَ مَثَلاً فِي الْهَالِكِينْ
مَدَى السِّنِينْ

حُيِّيتِ يَا كَتَائِبَ الْفِدَاءْ
حُيِّيتِ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءْ
أَحْيَيْتِ فِي نُفُوسِنَا الرَّجَاءْ
أَنَّ فِلَسْطِينَ إِلَيْنَا سَتَعُودْ
وَتَطْهُرُ السُّهُولُ وَالنُّجُودْ
مِنَ الْيَهُودْ

حَرْبُ الْفِدَاءِ مِنْكِ كَانَتْ عَدْلاَ عَلَى الْعَدُوِّ سَتَكُونُ الْفَصْلاَ
إِنْ يَكُنِ الْفِيلُ فَكُونِي النَّمْلاَ يُوسِعُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ قَتْلاَ
حَتَّى يَكُونَ مَثَلاً فِي الْهَالِكِينْ
مَدَى السِّنِينْ

بُورِكْتِ يَا كَتَائِبَ الْمُجَاهِدِينْ
فِي كُلِّ حِصْنٍ لِلْعَدُوِّ تَنْسِفِينْ
فِي كُلِّ لُغْمٍ تَزْرَعِينْ
وَكُلِّ خَطٍّ تَقْطَعِينْ
وَكُلِّ رُعْبٍ تَنْشُرِينْ
فِي الْمُجْرِمِينْ

فلا يخفى ما في هذا النشيد من الحماس الظاهر الذي يسري في روح المتلقي، وكأنه يُصْعَقُ بما كان يختلج في صدر باكثير رحمه الله، فينسجم معه في حماسه وثورته، كما لا يخفى أيضا، إصراره على مخاطبة فلسطين والمجاهدين بفعل الأمر غالبا، لأن الوقت الذي تعيشه فلسطين لا يسمح لخطاب سواه، لأن العدو له تاريخ عريق في تدنيس القدس وقتل الأنبياء وتشويه الوجود بالبغي والفسوق والجحود والاغتصاب، وكل أشكال الفساد في الأرض، حتى استحق النقمة من أهل الأرض، والغضب من السماء، وبالتالي، فإن إخراجه من فلسطين وتحرير القدس منه مسؤولية عاجلة قبل أن يستفحل أمره، ويستطير شره.

لهذا فإن المتلقي يلمس في هذا النشيد أمرين لم يلمسهما في باقي أناشيد باكثير رحمه الله، ويحس وكأن الشاعر قد قصد إليهما قصدا، لخصوصية فلسطين في قلبه، وخطورة مشكلتها بالنسبة إليه، و هذان الأمران هما:

أ ــ الحضُّ على مواصلة المقاومة والإصرار عليها من خلال المعجم الموظف في النشيد.

ب ــ التفصيل الذي عمد إليه في حديثه عن المجاهدين وعن الصهاينة على حد سواء.

فأما العنصر الأول، فإن الشاعر من خلال النصف الأول من هذا النشيد، يحث المقاومة على مزيد من الصمود والاستمرار في مدافعة العدو، كما يظهر بوضوح في تكراره للصيغة الصرفية «تَفَاعَل»، الدالة على التدرج في حدوث الشيء مع الاستمرار عليه «تَصَاعَدِي، تَطَايَرِي»، فهو لا يقنع بالمقاومة، وإنما يريد منها مزيدا من التصعيد والاستمرار، لأن طبيعة العدو الصهيوني ليست كسائر طبائع المستعمرين الذين غزوا العالم الإسلامي لتحقيق أطماع شتى، وإنما هو استعمار معقد يجعل الأهداف العقدية والدينية على رأس الأهداف التي من أجلها تَسَلَّطَ على فلسطين، لهذا فإن باكثير رحمه الله كان بِبُعْدِ نَظَرِه، ينظر إليه طوال حياته، وفي كل إبداعه الشعري والنثري والمسرحي بعين القلق والوجل، وكان دائما يتوقع منه مزيدا من الشر والعدوان، وهذا ما وقع فعلا.

لهذا فهو في هذا النشيد، يريد مزيدا من الجهاد، ومزيدا من الثبات من المجاهدين، حيث أتبع الفعل «تَصَاعَدِي» بتعليل مفصل ذكر فيه ــ كما قلنا سابقا ــ جرائم الصهاينة، ثم أتبع الفعل «تَطَايَرِي» بتعليل آخر، هو ضرورة إخراج اليهود من فلسطين، لأن دولتهم أصلا دولة غير شرعية مبنية على البغي والظلم، تماما كالزنيم الذي ولد من سفاح.

والملاحظ إلى جانب ذلك، أن الشاعر رحمه الله يربط المقاومة في كلتا الحالتين ب«السماء»، تأكيدا على المرجعية الإسلامية التي ينبغي أن ينطلق منها المجاهدون في فلسطين، ليكون النصر من عند الله عز وجل حليفهم، وبالتالي

فإن المقاومة الفلسطينية لا تقاوم من أجل الأرض فقط ، وإنما من أجل إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض التي باركها الله جل و علا في العالمين، فجعلها موطنا للأنبياء، ومعراجا لأفضل أنبيائه محمد صلى الله عليه و سلم.

إلى جانب ذلك، نجد أن الشاعر قد ربط أيضا بين الحالتين السابقتين وعناصر الإشراق والنور، حيث ربط بين «تَصَاعَدِي » و«شَعْلَةَ الْفِدَاءِ»، وبين «تَطَايَرِي» و«جَذْوَةَ الْفِدَاءِ»، والشعلة والجذوة، كلتاهما تدل على النور والضياء، وكأنه يريد أن يقول بأن المقاومة أمل يحمل انبثاق فجر جديد مضيء يقضي على ظلام الصهاينة وظلمهم الذي اسود به الوجود بعامة، وفلسطين بخاصة، لهذا ختم القسم الأول من النشيد بهذا الهدف الأسمى الذي كان يحلم به، فقال:

أَحْيَيْتِ فِي نُفُوسِنَا الرَّجَاءْ
أَنَّ فِلَسْطِينَ إِلَيْنَا سَتَعُودْ
وَتَطْهُرُ السُّهُولُ وَالنُّجُودْ
مِنَ الْيَهُودْ

لهذا جاء وقع فعل «أَحْيَيْتِ»، وقعا خاصا في نفس المتلقي، يحس وكأنه نشط من عقال، أو خرج من نفق مسدود، وكأن الموت الذي كان مخيما على بلاد فلسطين قد انقلب فجأة، وبفعل المقاومة إلى حياة نَفَخَتْ روح الرجاء في نفوس المسلمين، وبأن فلسطين لابد وأن تعود إلى أهلها، وينقلب الصهاينة صاغرين مهما علوا في الأرض أو طال الزمان.

وأما العنصر الثاني، والمتعلق بالتفصيل، فإنه ينبني ضرورة على ما سبق، و يتأسس عليه، تماما كما قلت سابقا بأن باكثير رحمه الله يبني دائما نتائج أناشيده على مقدماتها، لذلك فإن الحياة/ الأمل، بعد الموت/ اليأس، لا يأتي عبثا، وإنما يأتي بفعل المقاومة والجهاد وبطولات المجاهدين، لهذا فلابد من كلمة حماسية يوجهها إليهم الشاعر تكون نابعة من صميم فؤاده، وهو ما يظهر من تكراره لفعلي «حُيِّيتِ» و«بُورِكْتِ»، تأكيدا منه على رضاه المطلق على أداء

المقاومة الفلسطينية، وهو ما يظهر أيضا في تعداده المفصل لمظاهر بطولات المجاهدين، من نسف للحصون، وزرع للألغام، وقطع لخطوط إمداد العدو واتصالاته، ونشر الرعب في صفوف جنوده المجرمين في كل غَوْرٍ أو تَلٍّ من بلاد فلسطين المباركة.

ومرة أخرى، يربط باكثير رحمه الله المقاومة الفلسطينية بالسماء، فيدعو لها برعاية/ نصر الله عز وجل، حيث يقول في تَأَثُّرٍ بيِّنٍ، و تضرع عميق:

يَـرْعَـاكِ رَبُّ الْعَالَـمِـيـنْ
فِـي كُـلِّ حِـيـنْ

وهنا لا تخفى دلالة الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال«يَرْعَاكِ»، بما يحيل عليه من دعاء باستمرار العناية الإلهية لهذه المقاومة في كل حين، وكأنه بذلك يريد أن يرد الأعجاز على الصدور، بالتلميح إلى أن الاستمرار في الجهاد في سبيل الله يعني استمرار نصرة الله عز وجل للمجاهدين، والدفاع عنهم: ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الحج، الآية ٣٦، فَيُطَهِّرُ الله جل وعلا الأرض المباركة من دنس المجرمين:

فِي كُلِّ قَلْبٍ كَمْ قُلُوبُنَا حَنِينْ
إِلَيْكُمُو يَا صَفْوَةَ الْمُجَاهِدِينْ
تَهْفُو لَكُمْ أَكْبَادُنَا فِي كُلِّ حِينْ
أَنْتُمْ أُسُودُنَا فَحَرِّرُوا الْعَرِينْ
أَجْمَعَ مِنْ عَكَا إِلَى طُورِ سِنِينْ
لِلْعَائِدِينْ

خلاصة الأمر في كل هذه الدلالات المشار إليها في هذه الفقرة من هذا البحث المتواضع، أن باكثير رحمه الله، يلتزم دائما بأمرين أساسيين أراهما ضروريين للكشف عن البنية الدلالية لكل هذه الباقة من الأناشيد، وهما:

أ ــ بناء المقدمات على النتائج: بحيث إنه يلح دائما على هدف واحد، هو الحرية والاستقلال من قيود الاستعمار، لكن هذا الهدف لا يتحقق أبدا إلا

بالمقاومة والجهاد والتضحية بالنفوس والدماء، لأن الجامع بين هذا الاستعمار الغربي المتوحش، والعالم الإسلامي المغلوب على أمره، هو علاقة صدام وصراع، بدأها المستعمر بالتسلط والتجبر، وعلى العالم الإسلامي أن ينهيها بالحديد والنار، لهذا جاءت هذه الأناشيد كلها مشيدة بالجهاد والمجاهدين، ومتغنية بالحرية والاستقلال، ومبشرة بفجر مشرق أوشك على الميلاد؛ وعليه، فالحرية هي النتيجة التي لا تتحقق إلا باشتراط المقدمة التي هي الجهاد وسواعد المجاهدين.

ب ــ الإلحاح على تصوير الواقع الكائن بالظلمة، وتصوير الواقع الممكن بالنور: وهذا واضح جدا في غير ما موطن، كما بينا ذلك من قبل، فباكثير رحمه الله، لم يكن يرى في واقع العالم الإسلامي يومئذ، إلا الظلام والسواد تحت ظلم المستعمر وبطشه، وهو واقع مرفوض بكل ما يحمله من مهانة وإبادة لعزة إسلامية لها عهد طويل مع الزمن منذ البعثة النبوية الشريفة، لهذا تحمس رحمه الله للجهاد والمجاهدين، لما يحملونه من بشارة الحرية، كي تشرق في سماء العالم الإسلامي، ليسترد بهاءه وبريقه الحضاري من جديد.

٢ ــ العناصر الفنية في أناشيد باكثير

بكل إنصاف، أقول بأن أناشيد باكثير رحمه الله غنية جدا من حيث الأدوات الفنية، مما يدل عن باع طويل في القول الشعري، وتمكن ظاهر من ناصيته، فهي ثرية ثراء واضحا بكل الأساليب البلاغية المختلفة، ناهيك عن تمكنه من تصاريف اللغة العربية و طرق تعبيرها، مما يؤكد نهله من مواعين اللغة العربية الصافية ومصادرها المختلفة؛ لكن قبل الحديث عن نماذج محددة من هذا كله، بقدر ما يسمح المقام، أود أن أعرج على أحد أهم ركائز أناشيد باكثير، وهو بناؤها الفني الدائري المتميز الذي التزم به في كل أناشيده.

أ ــ البناء الفني الدائري

إن عناية باكثير رحمه الله بالبناء الفني في أناشيده ظاهر بلا ريب، حيث إنه قد أخضع كل نشيد منها لبناء محكم، قوامه التدرج في تحقيق الأهداف التي يريدها أن تتحقق في واقع العالم الإسلامي عِيَاناً؛ وبطريقة أخرى، فقد أشرنا قبل قليل إلى أن الدراسة الأفقية لكل دلالات هذه الأناشيد ، تفضي إلى تحديد إحدى أهم البنى الأساسية فيها، والمتعلقة ببناء النتائج على المقدمات؛ وهنا أيضا ــ في البناء الفني ــ تصح هذه القاعدة إذا درسنا كل نشيد على حدة دراسة عمودية، حيث يظهر بوضوح بأن الهيكل العام مُوَحَّدٌ بين كل هذه الأناشيد.

فإذا أخذنا مثلا نشيد« لك العلا يا ليبيا»، نجده مبنيا على مراحل محددة، تبدأ بتنويه باكثير رحمه الله بالإشراق والتلألؤ الذي دلفت إليه ليبيا بعدما انسلخت من ظلمة المستعمر؛ لكن هذا الهدف/النتيجة، لم يتحقق إلا بسواعد الأبطال الليبيين وجهادهم، ثم إنه إذا كان هذا الهدف خاصا، حققه الليبيون، فإن الشاعر اعتبره هدفا عاما، يجب أن تتطلع إليه أعناق كل العرب والمسلمين، وفي الأخير ختم النشيد بما بدأه به من إحساس بالزهو بالحرية بالإنجاز الذي حققته ليبيا كما قلنا؛ وخلال كل مرحلة من هذه المراحل نجد الشاعر رحمه الله يفصل في نطاق ما تتحدث عنه، ثم يمهد بما يشبه حسن التخلص، لينتقل إلى المرحلة الموالية، إلى أن يأتي على ختم النشيد كما بَدَأَ، على نحو دائري واضح.

وهذا البناء الدائري يسري على كل الأناشيد بلا استثناء[١٥]، بما في ذلك نشيد «حرب الفداء»، الذي خُصَّ به فلسطين التي وإن لم تكن قد تخلصت بعدُ من اغتصاب الصهاينة، إلا أن الشاعر رحمه الله، كان يرى في انطلاق شرارة المقاومة الفلسطينية أملا لاستقلال فلسطين وعودتها إلى ديار المسلمين، فكأنه كان يتحدث عن نتيجة وشيكة الوقوع في حياته، بما كان يبصره من استماتة الفلسطينيين، وجَلَدِهِمْ في جهاد العدو الصهيوني.

وبالتالي فإن البناء الدائريّ لأناشيد باكثير رحمه الله، بناء ثابت، له مقدمة ينطلق منها، ونتيجة ينتهي إليها، ولنأخذ نشيد « دولة الجنوب» لِقِصَرِهِ، مثلا

على ما نذهب إليه، حتى تتضح لنا معالم هذا البناء أكثر، حيث يقول:

يَا دَوْلَةَ الْجَنُوبْ ... يَا بَلْسَمَ الْجِرَاحْ
فِي ظُلْمَةِ الْخُطُوبْ ... أَشْرَقْتِ كَالصَّبَاحْ
فِي حَوْمَةِ الْجِهَادْ ... وَالْحَرْبُ فِي ضَرَمْ
وُلِدْتِ فِي مِهَادْ ... الْعِزِّ وَالشَّمَمْ
وَافَى بِكِ الْقَضَاءْ ... لِأُمَّةِ الْعَرَبْ
بُشْرَى مِنَ السَّمَاءْ ... بِالنَّصْرِ وَالْغَلَبْ
اللهُ أَكْبَرُ ... فِي يَوْمِكِ الْعَظِيمْ
عَادٌ وَحِمْيَرُ ... هَبَّا مِنَ الرَّمِيمْ
يَمْشِي مَعَ الْيَمَنْ ... فِي دَارَةِ الشَّرَفْ
وَالْوِحْدَةُ الثَّمَنْ ... وَالسُّؤْدَدُ الْهَدَفْ
لِوَاؤُكِ الْجَدِيدْ ... يُمْنٌ عَلَى الْعَرَبْ
فَالْيَمَنُ السَّعِيدْ ... مِيلَادُهُ اقْتَرَبْ

فنلاحظ أن عناصر النشيد محسوبة و محددة، هي:

أ ــ النتيجة: الإشراق بعد الظلمة / الحرية بع الاستعمار.

ب ــ المقدمة/الوسيلة: الجهاد والكفاح.

ج ــ الأمل في أن يتحقق للعالم الإسلامي ميلاد جديد، كالميلاد الذي تحقق لليمن.

فالشاعر رحمه الله ينهي نشيده بما بدأه به، وهو الابتهاج بما تحقق في اليمن، حيث بدأ بالحديث عن الإشراق، بكل ما يحمله من انبلاج صبح منير بعد ليل طويل، وانتهى بالحديث عن هذه الدلالة نفسها بطريقة أخرى أكثر دلالة ورمزية « ميلاد جديد»، وكأنه رحمه الله، لا يرى اكتمال النشوة الكبرى إلا بعد تحقق الحرية/الميلاد الجديد لكل بلاد المسلمين، وليس في بلد دون آخر.

لهذا فإنه رحمه الله، حرص في هذه الباقة من الأناشيد كلها، على أن يبدأ بدلالة محددة، وأن ينتهي بها كما هي، فيكتمل بناء النشيد في شكل دائري كما قلنا.

أما نشيد «لحن السلام»، فإننا نجد الشاعر رحمه، قد أخضعه لهذا البناء الدائري نفسه، وإن لم يتناول فيه الموضوع نفسه الذي تناوله في باقي الأناشيد، إلا أن البناء في هذا النشيد، وإن لم يكن دلاليا، فإنه فنيٌّ، نصَّ عليه بتكرار العبارات نفسها التي أوردها في مطلع النشيد مع لاَزِمَتِه، فقد بدأه بقوله:

لَحْنٌ جَمِيلٌ طَابَ فِي الأَسْمَاعِ لَحْنَا
وَاسْمُ السَّلاَمِ

ثم أنهاه بهذه الأشطر الثلاثة نفسها، مع تقديم اللازمة فقط على البيت، فقال:

وَاسْمُ السَّلاَمِ
لَحْنٌ جَمِيلٌ طَابَ فِي الأَسْمَاعِ لَحْنَا

وهذا ما فعله أيضا في نشيد «مصر يا أرض الخلود»، حيث بدأه أيضا ببيتين كررهما أحد عشر مرة في النص كله عقب إنشاده لكل بيتين من الشعر، وقد افتتحه بهما، و بهما ختمه، وهما:

بِهَوَاكِ قَاطِبَةً نَدِينْ وَإِلَيكِ يَا مِصْرُ الحَنِينْ
هَلْ يَا كِنَانَةُ تَعْلَمِينْ أَنَّا نَمُوتُ وَتَسْلَمِينْ

وبهذا يتضح بأن بناء أناشيد باكثير رحمه الله بناء دائري متكامل، تنتهي دائما بما تبتدئ به، سواء كان ذلك بالنص على الدلالة نفسها، أو بتكرار مطلع النشيد كما هو حَرْفاً في آخره، إمعانا منه رحمه الله في هذه الدائرية في البناء.

ب ــ الأساليب البيانية

قلت قبل قليل بأن باكثير رحمه الله، يعمد إلى إكمال بناء أناشيده إما دلاليا أو فنيا، و في كلتا الحالتين أجاد بلا ريب، لكن الجانب الدلالي في بعض الأساليب البيانية التي زين بها أناشيده، قد بلغ الغاية في البهاء والجمال الفني، يستهوي المتلقي ويستحوذ عليه في جو أثيري خلاب، حيث نراه يعمد إلى تشبيهات واستعارات شفافة تكاد تتضح برمزية بارعة، لا أشك مطلقا في أنه رحمه الله قد بذَّ بها معاصريه من شعراء الأربعينيات، وما تلاها، من القرن الماضي.

صحيح أن طبيعة النشيد لا تحتمل الرمزية ولا الإغراب في التشبيه والاستعارة، حيث إن المقصود منه هو الوصول إلى أكبر قدر ممكن من المتلقين من المجتمع الإسلامي، سواء كانوا من العامة أو من الخاصة، لذلك فإن طبيعة المتلقي المستهدف، تستدعي لغة سهلة لذيذة الإيقاع للتأثير عليه، ولنقل طبيعة العواطف المعبر عنها من وجدان المبدع إلى وجدان المتلقي كما هي، بما فيها من حماس في المشاعر و استنفار للحواس؛ لكن باكثير رحمه الله ــ وهو يعلم هذا بما هو شاعر متمرس ــ استطاع أن يوفق بين مقاصد الأناشيد في أجلى مظاهرها، وبين توظيف تعابير ذات شحنة رمزية عالية، تشع أملا وبريقا تستهوي المتلقي أيا كان مستواه الثقافي؛ وحسبنا من ذلك بعض الأمثلة للاستئناس فقط ، حيث يقول مثلا:

يَا دَوْلَةَ الْجَنُوبْ يَا بَلْسَمَ الْجِرَاحْ
فِي ظُلْمَةِ الْخُطُوبْ أَشْرَقْتِ كَالصَّبَاحْ

ففضلا عن الانشراح الذي يحس به المتلقي، أو قل الشفاء الذي يشعر بدبيبه بين جوانحه وهو يسمع عبارة «بَلْسَمَ الْجِرَاحْ»، فإن عبارة «أَشْرَقْتِ كَالصَّبَاحْ»، تبلغ بالمتلقي قمة الانتشاء، فالجملة وإن كانت عبارة عن تعبير بسيط، إلا أن حمولتها الدلالية تنضح ببعد رمزي يحمل كل معاني الأمل و النور، بعد ليل طويل حالك تخلص منه اليمن، تَنَفَّسَ معه صُبْحُ الحرية بكل عُمْقٍ مستطاع؛ و ما يزيد من بهاء هذا التعبير، وجودُه جنبا إلى جنب مع عبارة «بلسم الجراح»، حيث تكتمل نشوة المتلقي، و يحس بما كان يحس به المبدع رحمه الله، وهو يتابع هذا الانفراج الذي سرى بردا و سلاما في عروقه.

ثم إن هذا التعبير يصل مداه في آخر النشيد، حين تَوَجَّهُ الشاعر رحمه الله بقوله:

فَالْيَمَنُ السَّعِيدْ مِيلاَدُهُ اقْتَرَبْ

حيث يحس المتلقي فعلا ، بميلاد جديد بعد مخاض عسير، فيحس بدفقات شعورية لذيذة تدغدغ أعماقه، خاصة و أنه قال قبل ذلك بقليل:

عَادٌ وَحِمْيَرُ هَبَّا مِنَ الرَّمِيمْ

حتى لكأن المتلقي يبصر بهذا التعبير المجازي، صورة تَبَابِعَةِ اليمن وأَقْيَالِهَا تتجسد أمامه عيانا، ليتشكل الجسد اليمني العريق من جديد، و يستوي أمامه مُنْتَصِبَ القامة عملاقا، ينفض عنه غبار الذل و الهوان في تَحَدٍّ واضح، ليعلن هذا الميلاد الجديد الذي بَشَّرَ به الشاعر رحمه الله.

وهذا الإحساس ينتاب المتلقي أيضا في نشيد «حرب الفداء»، حيث يحس وهو يقرأ «تَصَاعَدِي تَصَاعَدِي»، بأن جوانحه تَسْتَعِرُّ وتشتعل التحاما مع أجساد المجاهدين، ليتقدم إلى الأمام للدفاع عن فلسطين ضد الصهاينة المعتدين، خاصة وأن الشاعر نفسه كان يحس بهذا الإحساس نفسه، لذلك عمد إلى هذه التعابير المجازية الرمزية بالدرجة الأولى «شُعْلَةُ الْفِدَاءِ وغَضْبَةُ السَّمَاءِ، و جَذْوَةُ الْفِدَاءِ ونِقْمَةُ السَّمَاءِ» فساوى بين هذه العبارات التي، وإن كانت تثري النص إيقاعيا ولاشك، إلا أن الإثراء الدلالي و الفني بيِّنٌ فيها ولا شك، حيث يحس المتلقي باشتعال جذوة المقاومة والفداء غضبا لفلسطين ونقا على الصهاينة، ليسترسل النشيد على هذا النحو، حتى يصل معه الشاعر إلى قوله:

أَنْتُمْ أُسُودُنَا فَحَرِّرُوا الْعَرِينْ

حيث تصل الاستعارات إلى القمة، لأن ذلك الاشتعال الذي بدأ به الشاعر نشيده، وتلك الغضبة الْمُضَرِيَّةُ للقدس، قام بها أبطال ليسوا ككل الأبطال، و إنما هم أسود استحوذ العدو على عرينها، فهبت لاستعادته في هيجان جهادي عادل، اجتاح السهول والنجود الفلسطينية، نصرة للعدل، و إعادة للحق إلى أهله.

فهذه التعابير بثرائها الدلالي، وتميزها الفني، تظل مع ذلك قريبة المأخذ من أي صنف من أصناف المتلقين، وتؤدي دورها المنوط بها لديهم كلهم، فبقدر ما تثرى مع العامة لسهولة وعمق مغزاها، فإنها تزداد ثراء مع الخاصة، لما يلمسونه فيها من عمق الفكرة، وسمو العبارة إلى مصاف الإبداع الحقيقي، بحث إنها لا تبقى مجرد تشبيهات واستعارات وكنايات فقط، وإنما تتجاوز بشحنتها الدلالية لتلج عالم الرمز الشفاف الذي ينتشي معه المتلقي،أي مُتَلَقٍّ، أيما انتشاء.

٣ ـ الإيقاع في أناشيد باكثير

بعد هذا كله، يأتي دور الحديث عن الإيقاع بكل عناصره، بحسب ما يتطلبه المقام؛ فعادة ما ينقسم الحديث عن الإيقاع إلى قسمين:

أ ـ الأوزان.

ب ـ الأساليب البديعية في علاقتها بالأصوات وأجراسها.

أ ـ الأوزان: فمن المعلوم أن أوزان الأناشيد شبيهة بأوزان الظواهر الإيقاعية التي عرفها الشعر العربي في مختلف مراحله، و قد تحدث عن هذا غير واحد من الدارسين العرب، مما لا يتسع الحديث عنه الآن[١٦]؛ حيث لجأ الشعراء العرب إلى التصرف في أوزان الشعر العربي تصرفا يتناسب مع طبيعة إبداعهم، فيرتكبون زحافات و علا مختلفة تخرج عما هو معروف في عرف العروضيين، أو يمزجون بين البحور المختلفة لتشكيل إيقاع يرونه مناسبا لدفقاتهم الشعورية التي يصدرون عنها، أو تراهم يعودون إلى أوزان كانت شائعة في الشعر العربي فأصبحت مهجورة، أو سوى ذلك مما أحال عليه غير واحد من الدارسين العرب قديما و حديثا، في المشرق، أو في المغرب والأندلس.

وأوزان أناشيد باكثير رحمه لا تختلف عن هذه الظواهر المشار إليها، خاصة وأن اختيار الأوزان مما يُرَكِّزُ عليه غالبا في تأليف الأناشيد بغية الزيادة في تحميس المتلقي والتأثير عليه[١٧]، لهذا فإن أول ما نلاحظه في أوزان أناشيد باكثير، أنها أوزان قصيرة ككل أوزان الأناشيد في الشعر العربي الحديث و القديم، بحيث لجأ باكثير رحمه في جلها إلى مجزوء الرجز [١٨]، فتصرف في الزحافات و العلل على نحو خاص يذكر ببعض أوزان الرجز المجزوء التي تحدث عنها الدكتور عبد الله الطيب رحمه [١٩]، ولم يخالف إلا في نشيد واحد، وهو «إلى أندنوسيا الباسلة»، حيث نظمه على مجزوء الرمل (فَاعِلَاتُنْ ـ فَاعِلَاتُنْ) × مرتين، ومثال ذلك، قوله رحمه الله:

لاَ تُبَـــالِـــي/ بِالْغَـــــوَادِي فَالْعَـــــوَادِي/
مِنْ سِـــلاَحِـــك
- () - - () - () / - () - - () - () - () - - () - () / - ()
- - () - ()
فـاعـلا تـن /فـاعـلا تـن فـاعـلا تـــن /فـا
عـلا تـن

وأحسب أن اختيار باكثير رحمه الله بحر الرجز مجزوءا، لأغلب أناشيده، إنما هو اختيار آت من إحساسه بخفة هذا الوزن أولا، ولإحساسه باستجابته لدفقاته الشعورية ثانيا، و لإيقاعه الذي يَسْهُلُ حِفْظُهُ على المتلقي، بل والتفاعل معه ثالثا، وهذا هو الأهم؛ خاصة وأن الشعراء المحدثين نظموا الأناشيد المدرسية التي تعد بالدرجة الأولى للحفظ والإنشاد على هذا الوزن الذي أجاد الدكتور عبد الله الطيب رحمه الله في الحديث عنه [20].

ب ــ الأساليب البديعية في علاقتها بالأصوات و أجراسها:

ولعل أبرز ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق، هو «التكرار»، باعتباره من أهم الظواهر التي يعمد إليها كل الشعراء في نظم الأناشيد، لما فيه من إثراء لدلالات النص، ولدوره أيضا في بنائه الفني، ناهيك عن دوره المتميز في إيقاعه.

فمن المعلوم أن التكرار في أي نص شعري سواء كان نشيدا أو سواه، إنما يأتي لثلاثة أغراض، هي: « ١- التكرار المراد به تقوية النغم.

٢ - التكرار المراد به تقوية المعاني الصورية.

٣ - التكرر المراد به تقوية المعاني التفصيلية.

وهذه الأنواع الثلاثة قد تلتقي جميعها في بعض التكرار الذي يجيء به الشعراء وقد يلتقي اثنان منها»[21]، وباكثير رحمه الله قصد إلى هذه الغايات الثلاث أجمعها، و ذلك من خلال لجوئه إلى توظيف التكرار بطريقتين، هما:

أ ــ تكرار كلمة بعينها.

ب ــ تكرار أبيات بكاملها، والتي تكون بمثابة لازمة النشيد.

فأما تكرار كلمة بعينها، فظاهر جدا في كل الأناشيد، من ذلك مثلا تكرار لفظة «الحب» عشر مرات في نشيد«لَحْنُ السَّلاَم» وكلمات «تَصَاعَدِي ونَطَايَرِي» في نشيد «حرب الفداء»، وسوى هذا كثير جدا.

وأما تكرار أبيات بعينها، فهو ظاهر أيضا في كل الأناشيد، من ذلك مثلا، تكرار «لَحْنُ السَّلاَم» ثماني مرات في نشيد«لَحْنُ السَّلاَم»، وتكرار البيتين:

حَرْبُ الْفِدَاءِ منْك كَانَتْ عَدْلاَ عَلَى الْعَدُوِّ سَتَكُونُ الْفَصْلاَ
إِنْ يَكُنِ الْفِيلُ فَكُونِي النَّمْلاَ يُوسِعُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ قَتْلاَ

في نشيد «حرب الفداء»؛ وتكرار البيتين:

بِهَـوَاكِ قَاطِبَـةً نَدِيْـنْ وَإِلَيـكِ يَا مِصْرُ الحَـنِينْ
هَلْ يَا كِـنَـانَـةُ تَعْلَـمِينْ أَنَّـا نَمُـوتُ وَتَسْـلَـمِينْ

في نشيد «مصر يا أرض الخلود»؛ إلى غير ذلك من النماذج التي عمد باكثير رحمه إلى تكرارها في هذه الباقة من الأناشيد، بغية إثراء دلالاتها، كما قلنا، ولمزيد من التأثير على المتلقي أيضا.

ينضاف إلى التكرار، ما يراه المتلقي مهيمنا على هذه الأناشيد من أساليب الطباق والمقابلة، حيث عمد باكثير رحمه الله إلى مقابلة كلمة بكلمة أخرى تضادها سلبا أو إيجابا، كما قابل بين معنى بكامله بمعنى آخر يضاده بألفاظه و معانيه، و هذا شائع في أناشيده رحمه الله، فنجد مثلا «الشروق والغروب ــ الظلمة والنور ــ السفوح والجبال ــ الأرض والسماء ــ العيش والموت ــ الصباح و المساء»، وغير هذا كثير.

ولا غرابة في أن يتوسل باكثير رحمه الله بالطباق والمقابلة، لأنه كان يريد أن يتجاوز واقعا مظلما ، ليرتاد آخر مشرقا يختلف عنه اختلافا كليا، بما يمثله الواقع الأول من استعمار وظلام، وما يمثله الثاني من تحرر وإشراق، فطبيعة التصوير تستدعي المقابلة بين الصور والمعاني.

خلاصة

أخيرا، فإن إبداع باكثير رحمه الله في أناشيده، لا يقل تألقا و تمكنا عن إبداعه فيما سواها من الفنون التي برع فيها، فقد حملت هذه الأناشيد كل أمانيه التي كان يحلم بتحقيقها في العالم الإسلامي ، لكي يراه و قد تحرر من قيود الاستعمار الغربي المتوحش ، ليعانق الحرية بكل ما أوتي من قوة، إلا أنه رحمه الله، كان يرى أن الطريق إلى هذا ينبغي أن يُعَدَّ له الرجال المجاهدون المخلصون، حتى يتمكنوا من رفع التحدي و قهر المعتدي، لتعود راية القرآن الكريم في كل أنحاء البلاد الإسلامية خَفَّاقَةً عَالِيَةً، لهذا رأيناه يستبشر بكل نصر يتحقق في كل شبر من أرض المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ناهيك عن احتفائه البيِّن باندلاع الجهاد الفلسطيني ضد العدو الصهيوني، و حرصه على شد أزر الفلسطينيين بنشيده الذي خصهم به مُحَرِّضاً و مناصرا.

كل هذا عبر عنه بأدوات فنية تبرهن على مدى تمكنه من ناصية الشعر، حيث أخضع أناشيده لبناء فَنِّيٍّ دائري محكم، رصعه بأساليب بيانية من تشبيهات واستعارات، بل و رموز أيضا ، تضفي عليها جَوّاً أثيريا خلابا، يزداد بهاء مع ذلك الإيقاع المنساب انسيابا عذبا حينا، كما يَتَكَفَّأُ دَفَّاقاً مزلزلا أحيانا أخرى، زلزلة كتائب المجاهدين لحصون الاستعمار، لانتزاع حقهم في التحرر والاستقلال، لتعود إليهم ينابيع الإيمان صافية كما كانت في هذه الأمة أول مرة.

---

(١) معجم " ديوان الأدب " ، تحقيق د.أحمد مختار عمر و مراجعة إبراهيم أنيس ، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة و النشر ، القاهرة ١٩٧٤ ، ١ / ٤٠٤ .

(٢) لسان العرب ، ابن منظور ، طبعة دار صادر ١٣٠٠هـ ، مادة نشد ، ٣ / ٤٢٢ ــ ٤٢٣ .

(٣) الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية ١٩١٢ ــ ١٩٥٦ ، الدكتور إبراهيم السولامي ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ ، ص ١٤٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ص١٤٩ .

(٥) الرؤية و الفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب ، الدكتور أحمد الطريسي أعراب ، المؤسسة الحديثة للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧ ، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ .

(٦) نعثر في ديوان أحمد شوقي ، طبعة دار العودة ١٩٨٨ ، على نشيدين ، فضلا عن أناشيد الأطفال ، أولهما " نشيد مصر " ، المجلد الثاني ، ١٩٧/٤ ، و الثاني " نشيد الكشافة " ،المجلد الثاني ١٩٩/٤ ، و في المغرب نجد أن من أوائل

الأناشيد التي عرفها المغاربة ، نشيد بعنوان " نشيد الشباب " ، للشارع محمد الجزولي، قاله عام ١٩١٩م ، راجع الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية ، ص ١٥٠ .

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، حقق أصله عبد العزيز بن باز ورقّم كتبه وأبوابه و أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ،١٠، ١٩٨٩ / ٦٥٨ ــ ٦٥٩ .

(٨) نفسه ، ١٠ / ٦٥٩ .

(٩) نفسه ، ١٠ / ٦٦٥ .

(١٠) فتح الباري ، ٧ / ٤٩٩ .

(١١) نفسه ، ٧/ ٥٠٢.

(١٢) " الأعمال المجهولة في مسرح باكثير الاجتماعي " دراسة للدكتور أبو بكر حميد ، نشرت في مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٨ ، المجلد العاشر ، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣ .

(١٣) وراجع أيضا أناشيد أخرى، مثل: «الجلاء» و «صوت الوطن» و «الفتى العربي» و «الفدائي» «وكتائب الشباب»، و« ليث الجهاد »، و سواها من الأناشيد التي تلتهب حماسا و إلحاحا كبيرا من باكثير رحمه الله ، على خيار الجهاد ضد المستعمر .

(١٤) نجد أن باكثير رحمه يتحدث أحيانا عن فلسطين ضمن حديثه ، في أناشيد مختلفة ، عن قضايا التحرر في الوطن العربي ، من ذلك مثلا نشيد : «وكتائب الشباب» و كذلك نشيد «الفدائي» .

(١٥) و لا نستثني هنا سوى بعض الأناشيد التي لها بعد إجتماعي ، مثل« الأمّ » و «بناتُ الرشاد» ، و هو نشيد لا يخلو من موضوع الفداء نفسه ، ونشيد « أمّ قُوَيق» ؛ ونشيد «أيها النيلُ أحبّك» و هو نشيد فيه من التأمل ما فيه .

(١٦) يراجع في هذا الصدد ما تحدث به الدكتور عبد الله الطيب رحمه الله بتفصيل عن الأوزان القصار، في كتابه القيم " المرشد إلى فهم أشعار العرب " ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ ، المجلد الأول الجزء الأول ص ٧٨ و ما بعدها ، و راجع أيضا الفصل السابع من " موسيقى الشعر " للدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٨ ، ص ٢٠٩ وما بعدها .

(١٧) الرؤية و الفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ .

(١٨) أقول بأن إعادة شكل بعض الأناشيد من مصادرها الخطية ، كنشيد " لحن السلام " ، مثلا ، يُظْهِرُ بأن الشاعر رحمه الله ، قد نظمه على بحر المنسرح المنهوك ، بتفعيلة " مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولُنْ " ، و الذي يعتبره الدكتور عبد الله الطيب رحمه الله ، من الرجز ، راجع المرشد ١ /١ / ٨١ ٤ و الله أعلم .

(١٩) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، ١ / ١/ ٨١ .

(٢٠) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، ١ / ١/ ٨١ و ما بعدها .

(٢١) نفسه ١/ ٢ / ٤٩٥ ، وراجع أيضا بتفصيل أغراض التكرير الجزئية في " التكرير بين المثير والتأثير" د. عز الدين علي السيد ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ ، ص ١١٤ وما بعدها ، وراجع بتفصيل أكثر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن الأثير ، تقديم وتعليق د. أحمد الحوفي ، و د. بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٣ . ج / ٣ ص٣ وما بعدها .